



شهرية

١ . أزمة الإبداع أيضا

« تواجه حركة التأليف العربية أزمة في الإبداع . هل يعود ذلك الى الأوضاع السياسية أم الى اغتراب المبدع عن واقعه ؟ كيف تفسر هذه المشكلة وكيف تسعى الى تجاوزها؟ »
هذا السؤال طرحته عليّ الصفحة الأدبية في جريدة « الأنوار » البيروتية ، ضمن استفتاء شارك فيه عدد من الأدباء ، واحب ان اعيد نشر جوابي عليه هنا :

نقر اولاً ان هناك أزمة إبداع في حركة التأليف العربية . فقليلة بل نادرة هي المؤلفات العربية التي استطاعت في السنوات الأخيرة ان تحدث تموجاً هاماً على سطح الخلق الأدبي الراكد . ونعتقد ان لذلك عدة أسباب ، بعضها مرتبط بأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه الأديب العربي ، وبعضها الآخر متصل بأوضاع الأديب نفسه . واكتفي هنا بتحليل أهم سببين في الميدانين :

فالإزمات السياسية التي يعانيها العرب ، وخاصة بعد هزيمة حزيران ، تضيق آفاق الانطلاق التي ينشدها الأديب ليخلق ويبدع . وتلك الهزيمة بالذات ، اذا لم تكن محرّضاً على خوض المعارك لمحوها والقضاء عليها ، تصبح مادة إحياء عقيمة . والواقع ان كثيراً من الآثار الشعرية والروائية والقصصية استوحت مادتها من هذه الهزيمة ، ولكن ماذا بعد ؟ وحركة المقاومة نفسها ، كانت موضوع استلهام أدبي وفني . ولكنها حين ضعفت ثم تمزقت ، أصبحت باباً شبه مسدود أمام الأدباء .

وهكذا أصبح كثير من المبدعين يؤثرون الصمت على إنتاج آثار لا تجد تبريراتها في معطيات الواقع العربي . ان الاسى والتشاؤم واليأس ليست دائماً مادة صالحة لوعي الأدباء . وبالرغم من ايماننا الشخصي بان تردّي الأوضاع لا يلزم عنه بالضرورة صمت الصوت الأدبي ، فان ذلك لا يمكن الا ان يترك آثاراً عميقة في حركة الإبداع .

غير انه لا بد ان نشير هنا الى عائق آخر متصل بهذه الموانع ، هو عائق الكبت والارهاب والضغط على حرية الأديب . ان السلطات العربية اجمالاً تخاف حرية الفكر ، فتلجأ الى الرقابة والمنع والمصادرة ، واذا نتج عن ذلك خوف الأديب من ان تنتقل المصادرة الى شخصه بحيث يخشى الاعتقال ، كان هذا مبرراً معقولاً لا يثار الصمت . وهكذا تساعد السلطة على كبت الإبداع وتعميق الأزمة .

واذا اضفنا الى ذلك الرقابة الاجتماعية التي تستمد جذورها من التقاليد البالية والمحرمات والتي تنتصب فوق فكر الأديب كالشبح المرعب ، ادركنا احد الأسباب التي تجعله يكسر قلمه ويطوي أوراقه .

أما وضع الأديب نفسه ، من حيث متطلبات المعيشة والتزام المسؤولية العائلية ، فله تأثير جذري على طاقته الإبداعية . وليس لي القارىء هنا ، تدليلاً على ذلك ، ان ادلي بشهادتي الشخصية ، وقد تكون كذلك شهادة عليّ . ان كثيرين يتساءلون عن سر قلة إنتاجي ، او حتى انعدامه في السنوات الأخيرة . وأنا اجيب بان من أسباب ذلك ، وان لم تكن الأسباب كلها ، حرصي على ان أوفر لعائلتي وسائل العيش الشريف التي لا تستطيع رواية كل عامين او ثلاثة او مجموعة قصصية كل خمسة اعوام ان تؤمنها . ولذلك فلا بد لي من التماس نشاطات اخرى تسد عندي هذا العجز . ومن هذه النشاطات اللجوء الى الترجمات او التفرغ لعمل أكاديمي (كان عندي تأليف قاموس « المنهل » بالاشتراك مع الدكتور جبور عيسد النور) .

وكل ذلك يسرق دون شك وقت الإبداع والخلق ، او التهيوّ لهما . ولما كانت الدولة في لبنان غائبة غياباً كلياً عن دنيا الثقافة ، فانها بالتالي لا يمكن ان تساعد الأدباء على تخفيف أزماتهم وتأمين وسائل التفرغ لهم لينصرفوا الى ما خلقوا له .

يبقى السعي الى تجاوز هذه الأزمة ، واحسب ان في كلامي اشارات غير مباشرة الى ذلك . ولكن مما لا شك فيه ان وسائل العلاج ستكون مقصرة تقصيراً فادحاً اذا لم يكن الأديب يحس بانه صاحب رسالة ، وان الشعلة التي تتأجج في أعماقه جدير بها ان تدفعه الى الاطاحة بكل المعوقات والموانع التي تحول دون ابداعه . فاذا كان حقاً صاحب رسالة تحدى سلطة القمع والارهاب بصراحته وجراته في التعبير عن حريته ، وتجاوز اوضاعه المعيشية بالتضحية والصمود .

ويجب ان نعترف باننا محتاجون الى ادباء انبياء .

٢ . صدقي اسماعيل

منذ عامين تقريباً ، دعيت الى حضور جلسة للمكتب الدائم لكتاب آسيا وأفريقيا عقدت في موسكو . وبعد ان تدارس أعضاء المكتب جدول الأعمال ، وكان حافلاً بذلك اليوم ، ابلغوا ان ثمة مؤتمراً كبيراً للكتاب السوفيات

كان منعقدا آنذاك في قاعة اخرى بالعاصمة السوفياتية ، فتوجه بعضنا ليأخذ فكرة عن مناقشات الكتاب فسي شؤون الادب والفن .

وفي تلك القاعة ، رأيت المرحوم صدقي اسماعيل جالسا في احد المقاعد الامامية ، والسماعتان على اذنيه يتابع الخطب والمناقشات ، ويسجل على دفتره ملاحظاته . وقد حال التعب الذي كنت اصبته في جلسة المكتب الدائم دون ان استطيع متابعة المناقشات ، فانسحبت الى الفندق لآخذ قسطا من الراحة . وحين عدت بعد زهاء ساعتين وجدت صدقي اسماعيل ما يزال جالسا في مقعده يسمع ويتابع ويسجل .

وفي المساء ، شاهدت صدقي جالسا في ركن من الفندق ، منكبا على اوراقه يكتب . وقد حدثني عما سمعه من خطب ومناقشات بتفصيل دقيق يدل على انه تابع الحديث كله مترجما الى اللغة الفرنسية التي كان يحسنها ، وقد كان يسجل آنذاك ملخصا له تمهيدا لنقله الى مجلة « الموقف الادبي » التي كان يرأس تحريرها .

كان الانطباع الذي يوحيه صدقي اسماعيل لكل من يعرفه انه نموذج للمثقف العربي الجاد الذي يؤمن بان معالجة التخلف الذي يعانيه المثقف العربي لا تتم الا باحراق المراحل في التهام المعرفة التي فاتته منذ عهد الانحطاط واستدراك القصور بالاقبال على الثقافة الاجنبية . ولم اجلس الى صدقي اسماعيل يوما الا وبهرني بسعة اطلاعه ورحابة افقه وغنى ثقافته . وقد كانت هذه الثقافة تتميز بالاتساع الافقي والعمق العمودي . ولعله بين المثقفين العرب على رأس المطلعين اوسع اطلاع على ثمرات الفكر الاجنبي في شتى الميادين : في الشعر والرواية والمسرح والنقد ، وبخاصة النقد ، ومن يقرأ مقالاته ودراساته يعجب لمنابعته لمختلف تيارات الفكر الغربي ومدارسه النقدية على تنوعها وغناها .

ولكن ما يعادل ذلك أهمية ان صدقي اسماعيل مرتبط اشد الارتباط بالتراث العربي ، متغلغل فيه ، متذوق لكل ابداعاته ، على غير تعصب ولا تزمت . بل هو من اكثر المفكرين العرب تحرورا من العقد التراثية لتقييم التراث على حقيقته ، واستخلاص الجوهر فيه من العرض ، وتوظيفه لخلق فكر عربي جديد . وهو حين يعالج قضية من قضايا الادب ، ينم في طريقة تفكيره عن حضور مستمر في وجدانه للحديث والقديم كليهما ، للاجنبي والعربي ، للماضي والحاضر . وهذا التلاحق الدائم هو الذي يضيف على آثاره المكتوبة غنى الاستطراد والذبذبة الذي ينزع احيانا الى الضموض ويسقط احيانا اخرى في الابهام ، ولكنه يظل دائما علامة واضحة على خصب التفاعل بين الثقافات قديمها وحديثها في ذهن هذا المثقف العربي النموذج .

ولعل اهم سمتين في انتاج صدقي اسماعيل وعيه

لرسالة الادب الاجتماعية ، وايمانه المطلق بالحرية . فهو في السمة الاولى حريص ابدأ على ان يشد كل ابداع في الفكر والادب العربي الحديث الى خلفيته الاجتماعية وتصاديه مع هموم الجماهير في بحثها عن صيغ جديدة لمجتمع متطور يخلق مستوى للحياة جديرا بالامة وبالعصر الذي تعيش فيه . من هنا كان انتاجه الخلفي فسي الرواية والمسرحية والقصة القصيرة ، على محدوديته ، ادب التزام بمشاكل المجتمع الحقيقية ، ومن هنا كانت معظم كتاباته تثنى بالاهتمام الكبير بالمضمون الاجتماعي وبما تتمخض به حياة الشعب من التغيرات الفكرية . كما كان في دراساته وآثاره النقدية حريصا على مد صلات الفكر والنتاج باسباب المجتمع الذي يعكس الهام الاديب ، تأثرا به وانصبابا فيه .

واما السمة الثانية ، التي هي ايمانه المطلق بالحرية ، فقد كانت دعوة متصلة الى تحرر الفكر العربي وتحريره من كل قيود التزمت والرقابة والتضييق وتخليصه من معوقات الوروث واطلاقه في كل سماء منفتحة على قضايا الانسان ضمن الروح الثورية التي تفرضها المرحلة الحاضرة للامة العربية . وهذه الحرية الثورية محور اساسي تدور حوله افكار الراحل واهداف كتاباته كلها . وهي جديرة حقا بان تفرد لها دراسات ضافية ، ولا سيما في روايته « العصابة » وقصته التاريخية المسرحية «ايام سلمون» . كما ان مقالاته السياسية والفكرية والادبية التي شارك فيها بالدعوة للفكرة العربية ، وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره ، خليفة بدراسة هامة تضع هذا المفكر الناضج المخلص في موضعه من دعاة القومية العربية الاوائل .

وبعد ، فقد تذكرت حين سمعت من اذاعة دمشق ، منذ اسابيع ، نعي صدقي اسماعيل ، تذكرت قصته القصيرة « الدولاب » . قصة تلك الام الفقيرة التي كانت تهتم ، في ذلك العهد من عهود الاضطهاد في سوريا ، بشيئين اثنين : بابنها ودولاب عتيق لفضل القطن تستخدمه في كوخها في اوقات الفراغ والوحدة . وقد قبض جنود السلطة على ابنها يوما بتهمة القاء القنابل على الشكنة ، ثم قبضوا عليها لانها شتمت السلطة . وحين سألتهم متى يفرجون عنها قالوا : عندما تعترف بمخبا ابنها . وكان ان اجابتهم : انها سوف تقضي اذن مدة طويلة في السجن . وكل ما طلبته بعد ذلك ، بلهجة مفعمة بالحنان ، هو ان ياتوها من كوخها بالدولاب ، لانها « لا تستطيع ان تقضي تلك الايام من دون عمل » ومنذ ان تحرك الدولاب في السجن ، كانت المرأة تسأل بين يوم واخر بلهجة هادئة : « هل قبضوا على ابنها ؟ » .

لقد انهى صدقي اسماعيل قصته هذه بمساراة قصيرة : « كانوا يتحدثون في المدينة كيف ان دولابا عتيقا

يفتش عن موضوع يدر عليه المال ، فانصرف مدة مسن الزمن لدراسة تاريخ المافيا منذ نشأتها في صقلية حتى استقرارها في الولايات المتحدة حيث لا تزال ذا تأثير كبير على الحياة الاجتماعية كلها . وبالرغم من انه لم يلتق برجل واحد من رجال عصابات المافيا ولم يدخل عالم اللصوصية والسلب . فانه يصور في « العراب » هذا الوسط اروع تصوير واغناه بموهبة روائية مدهشة . ولم يصدق هو ، ولم يصدق احد من افراد أسرته الفقيرة ، ان دار « فاوسيت » للنشر قد اشترت حقوق اصدار « العراب » في كتاب الجيب بمبلغ ٤١.٠٠٠ دولار !

ولكن ما مصير الاديب الفقير حين يصبح غنيا ؟ كان ماريو بوزو يريد ان يضمن له ولاسره حياة شريفة ليستطيع ان ينصرف الى انتاج الآثار التي يريدتها ويرضى عنها ، دون غايات اخرى لا ترتبط ببنية الادب ذاته ، فماذا حدث له بعد ذلك ؟

يقول بوزو : « كنت قد وعدت زوجتي ، وانا بعد فقير ، باستئجار ستوديو خاص لي حين اصيب النجاح . والآن ، وقد حدث ذلك ، كان علي ان افني بوعدي . وقمت بعدة محاولات ، فاستأجرت عدة استوديوهات انيقة جدا ، وسافرت الى لندن ، وجربت الريفييرا الفرنسية وبورتوريكو ولاسن فيفاس ، وتعاقدت مع سكرتيرات واشترت آلات تسجيل . ولكن الوحي لم يات . انني بحاجة الى وجود الاولاد وصراخهم ومنازعاتهم . واني بحاجة ان تأتي زوجتي فتقطع علي عملي لتريني الستائر الجديدة .. » .

واذن ، فهل قدر على الاديب ان يكون فقيرا لينزل عليه الوحي ؟ اتكون هناك صلة سببية بين الفقر والفنى من جهة ، وبين الالهام من جهة اخرى ؟

ان تاريخ الادب حافل بأمثال الادباء الذين كان العوز وملاحقة اسباب العيش يحولان دون انصرفهم الى الانتاج ، ولكنه لا يفتقر ، ولا سيما في العصر الحديث ، لامثال الادباء المبدعين الذين لم يحل بلوغهم الفنى والبجوحة دون استمرارهم في الخلق . وهذا ما يدعو الى الاعتقاد بان الموهبة الحقيقية لا يمكن ان تموت او تدبل ، وان كانت تمر احيانا بفترات ركود واغفاء .

اما الامر الثاني الذي يستوقف في حديث ماريو بوزو ، فهو اشارته الى ضغط المجتمع على حرية الكاتب . وهو يقول في ذلك ، بعد حديثه عن موافقته على استخراج فيلم من الرواية :

« ان فيلم « العراب » حين دخل بين ايدي المنتجين والمخرجين ، لم يعد هو رواية « العراب » ، بل لم يكن حتى فيلم السناريو الذي وضعته . وقد فوجئت ذات لحظة بتدخل « الرابطة الايطالية الاميركية للحقوق المدنية » التي وعدها مدير الانتاج بان يحذف من السناريو

اغرى المرأة العجوز بان تريد البقاء في السجن الى الابد » . ان هذه الاقصوصة الرائعة التي ترمز الى النضال والمقاومة والتضحية صورة صادقة لحياة صدقي اسماعيل التي كانت عملا دائما وجهدا مستمرا وصمودا لا يكل ودورانا لا يتوقف في الاضطلاع برسالتته ومسؤوليته القومية والفكرية .

وكما اخذت تلك المرأة دولابها معها الى السجن ، اتصور الآن صدقي اسماعيل وقد اخذ هو ايضا دولابه معه الى مثواه الاخير ، اكرم الله والادب مثواه (١) .

٣ . قصة مؤلف وكتاب . .

صدرت هذا الشهر عن دار الاداب الترجمة الكاملة للرواية الشهيرة « العراب » The Godfather التي ضربت ارقاما قياسية في التوزيع لم يلفها كتاب منذ عشرات السنين وترجمت منذ صدورهما في العام الماضي الى ما يزيد عن عشرين لغة . وقد استخرج منها هذا العام فيلم كبير يعرض منذ شهور في كثير من دور السينما في العالم .

وقد قرأت لمؤلفها الايطالي الاصل « ماريو بوزو » حديثا طريفا يتحدث فيه عن « مفامرة العراب » ككتاب وكفيلم . واستوقفني في هذا الحديث الذي نشرته مجلة « باري ماتش » اخيرا امران هامان : تأثير المصادفة على قدر الكاتب ، وضغط المجتمع عليه .

يروى ماريو بوزو ان « العراب » بقيت طوال اكثر من سنة على لائحة « اروج الكتب » في جريدة نيويورك تايمس ، وكذلك ظلت الكتاب رقم ١ في الراج فسي بريطانيا وفرنسا والمانيا وسواها ، وارتفع مبيعها الى احد عشر مليون نسخة .. والى ما قبل ثلاثة اشهر زادت عائدات فيلم « العراب » عن ١٢٠ مليون دولار !

ولكن من هو ماريو بوزو هذا الذي لم يكن يعرفه احد من القراء ، فاصبح فجأة اشهر من همنغواي وسارتر ؟

يقول المؤلف انه كان قد اصدر روايتين : « ميدان التنافس الاسود » (١٩٥٥) و « السائح المحظوظ » (١٩٦٥) فلم يلتفت اليهما احد ، ولم يصب من حقوقه كمؤلف اكثر من ستة الاف دولار ، بينما اصبح اليوم ، بعد « العراب » ، من اغنى المؤلفين في العالم ! كان منذ سنوات لا يجد ما ينفقه على امور معاشه ومعاش عائلته ، وهو الان لا يعرف كيف ينفق المال الذي يتدفق عليه كالسيل !

ويروي بوزو انه ، بعد فشل كتابيه الاولين على صعيد الراج ، بالرغم من اعتزازه بهما كأثرين ادبيين ، قرر ان

(١) كلمة القيت في حفلة التابيس التي اقيمت في الشهر الماضي على مدرج جامعة دمشق .

بيان من ادارة « الآداب »

تعلم ادارة مجلة « الآداب » انها ، ابتداء من العدد القادم ، العدد الاول من عام ١٩٧٣ ، قد عدلت قيمة اشتراكاتها السنوية كما يلي :

لبنان : ٢٥ ليرة لبنانية

البلاد العربية : خمسة جنيهات استرلينية
او اثنا عشر دولارا

اوروبا وافريقيا : ستة جنيهات استرلينية
او خمسة عشر دولارا

اميركا : خمسة وعشرون دولارا

المؤسسات الرسمية والمكتبات العامة :
خمسون ليرة لبنانية

ثمان النسخة العادية : ليرتان لبنانيتان

كما اشرت الى ذلك في عدد سابق .

ومنها ان مطالب شركة التوزيع ، تبعا لمطالب المكتبات ، تزداد عاما بعد عام بالنسبة لعمولة التوزيع .
ومنها ان نفقات البريد قد زادت كذلك في الاشهر الاخيرة .

ومنها ان نفقات التحرير قد زادت هي ايضا .

وبالمقابل ، فان الاشتراكات في المجلة قد نقصت ، وان كان شراؤها من المكتبات لم ينقص ، كما نوهت منذ قليل ، ولم يزد اقبال المعلنين على النشر فيها ، مع العلم بان الاعلان قد اصبح موردا رئيسيا للصحف والمجلات .

ولما كان التحويل من معظم البلاد العربية يخضع لقيود شديدة تصل غالب الاحيان الى حد حظره ، فان مطالبة القراء بالاشتراك مباشرة في المجلة امر لا جدوى فيه .
تجاه هذا كله ، تجد ادارة « الآداب » نفسها مضطرة الى احد امرين : اما انقاص صفحات المجلة او رفع ثمن النسخة منها وقيمة الاشتراك فيها .

ولما كنا نعتبر الامر الاول تراجعاً يتناقض وتطور الصحافة ، فقد آثرنا ان نختار ، ابتداء من العدد القادم الذي تبدأ به السنة الحادية والعشرون ، الامر الثاني الذي سيتطلب من قراء « الآداب » مشاركتها في بعض التضحية ، آمليين ان يجدوا فيها بعض العوض .

سحريل دريسين

كل الاشارات المتعلقة بالمافيا ، وبان يحفظ « الشرف الايطالي ! » من اجل ذلك تركت الفيلم بصفتي مستشارا ، لاني رأيت انه لم يكن فيلمي ، واني لم اكن المعلم ، وانهم لم يكونوا يصفون الي . . .»

وماريو بوزو على حق . ان جميع الذين حضروا الفيلم ، وقد حضرته اخيرا في بيروت ، وكانوا قد قرأوا الرواية ، يجدون بونا شاسعا بين الفيلم والرواية ، بل اني اعتبر الفيلم تشويها حقيقيا للرواية التي تقصد الى فضح المجتمع الاميركي في تحلله المتصل اتصالا وثيقا بينيته الداخلية ، في حين ان الفيلم مقصور على سرد قصة عائلات المافيا ، وان كان يحاول الايحاء ببعض الجوانب الانسانية في هذه العائلات . اما من الناحية الفنية والرواية ، فقد قتل الفيلم كل التفاصيل التي تخاق ذلك « الاثير » النابض الذي تخضل به سطور الرواية واحداثها وايحاءاتها .

ان ماريو بوزو يقر بان منتجي الفيلم قد شوّهوا الرواية ، بل هو لا يتردد بالقول : « ساءني كذلك ان فرنسيس كابولا ، مخرج الفيلم ، قال في مقابلة صحفية انه كان يخرج « العراب » ليحصل على « المال الضروري ليخرج الافلام التي يرغب حقا باخراجها » . لقد احزنني ان اراه على قدر من الذكاء يتيح له ان يتصرف هذا التصرف وهو بعد في الثالثة والثلاثين من عمره ، بينما توجب علي ان انتظر خمسة واربعين عاما لفهم ان علي ان اكتب « العراب » لكون حرا في كتابة الروايات التي كنت ارغب حقا في كتابتها .»

فلماذا خضع ماريو بوزو لضغط رجال الاعمال السينمائيين فأقر تشويه روايته ؟ اما كان باستطاعته ان يرفض منح حق استغلالها في فيلم يشوهها ؟

مهما يكن من امر ، فقد انهى المؤلف مقاله بقوله :

« على اي حال ، بعد ظهور فيلم « العراب » ، اقررت واقعا واضحا : هو اني لست بعد روائيا ، وانما اصبحت شريكا في عملية « العراب » التجارية ! »
ولعل اعترافه هذا بسقوطه يحمل بعض الامل في ان تسترد موهبته الروائية صفاءها واشعاعها .

٤ . « الآداب » مرة اخرى . .

بهذا العدد ، تنهي « الآداب » عامها العشرين .

وبالرغم من ان الاقبال على قراءة المجلة لم ينقص بعد رفع ثمن العدد وقيمة الاشتراك هذا العام ، فان « الآداب » تواجه بعض المصاعب لعدة اسباب :

منها ان المجلة تمنع بتاتا من دخول بعض البلدان العربية ، وتصادر بعض اعدادها في بلدان عربية اخرى ،